الخوف من الموت

الكاتب الصحفى

عبد الوهاب مطاوع

رأيــت صديقــى والأمــواج تبتلع جســده الضئيل.. شلت أوصالى.. فقدت النطق.. لم أستطع حتى أن أصرخ!

obeikan.com

اندفـع الصبى الصغير عبد الوهاب مطاوع من باب حجرته إلى مائدة الطعـام على الفـور .. والتى سـبقه فى الالتفاف حولها والده وشـقيقه الأكبر.. كان شعوره بالجوع الشديد بعد أن لعب لساعات طويلة.. مد يده لالتقاط إحدى اللقمات وهمَّ بوضعها فى فمه.. ولكن.. تسـللت إلى سمعه همهمات بين والده وشـقيقه.. تبين من نظراتهما إليه أنه المقصود بها.. لقد فشـلت أن أنجح فى الابتدائية بمدرسـة دسوق.. ردد ذلك لنفسه.. حـاول أن يبتلع الطعام.. ولكـن بلا جدوى.. انزوى عبد الوهاب مطاوع داخل نفسه تقوقع بها.. شعر بخجل شديد وبعار أكبر.. قالها لنفسه... أصبحت مثار السخرية والتهكم من أهل دارى!

كان لهذا الحدث فى نفس عبد الوهاب مطاوع ذى السـبع السنوات أثر عميق ظل بداخله طوال عمره، وأصبح المركز الرئيسى الذى دفعه دفعا إلى النجاح وعدم الفشـل أبدا بعدهـا مهما كلفه الأمر من جهد ومعاناة.. كان النظـام التعليمـى بالمدارس فى ذلك الوقت مختلفـا عما هو موجود الآن، فالمـدارس الحكومية كانـت المكان الأفضل لتخريـج تلاميذ على مسـتوى جيد.. وبعد أن فشـل عبد الوهاب فى الحصول على الابتدائية من مدرسة دسوق الحكومية اضطرت أسرته لإدخاله مدرسة خاصة أهلية ظـل بها سـنتين ثم تمكن مـن النجاح والانتقال مرة أخرى إلى مدرسـة حكوميـة نظاميـة ليعود من جديـد تلميذًا مجدًا. وأصبـح عبد الوهاب مطاوع فى العاشـرة من عمره ويصف تلـك الفترة فى حياته قائلًا.. «كنا نقيم ببلدتنا دسـوق فى شارع أشبه بشـارع نجيب محفوظ فى روايته.. ذلـك المجتمع المختلف والمتجانس فى آن واحـد المتقارب والمتباعد بين

نوعيات من البشر.. جمع الشارع العديد من الطبقات المتوسطة والفقيرة وتجاور الجميع.. نشأ أطفال هذا الحى معًا يلعبون ويذهبون إلى مدارسهم معا»..

ويتذكر عبد الوهاب هنا.. صديقه رفعت «ابن الحداد».. ذلك الصبى صاحب الوجه الأسمر والجسد الفارع كعمود من الأبنوس وإحساس بالذنب والمسئولية كلما تذكره.

كان الصبى رفعت بمجرد مشاهدته ورؤيته لعبد الوهاب تتبدل شخصيته فجأة.. فيقوم بحركات استعراضية بهلوانية.. يقفز فى الهواء.. محاولا لفت نظر من حوله ونظراته مصوبة دائما نحو عبد الوهاب.. الذى أحس بأن صديقه يتعمد فعل ذلك عند رؤيته ولكنه لم يستطع أن يعرف السبب الحقيقى وراء سلوكه العجيب وتصرفاته الغريبة!!.. هل يريد أن يشعره بالتميز والتفوق عليه بتلك الحركات البهلوانية؟ يقول الكاتب الكبير عبد الوهاب مطاوع.. لم أجد تفسيرًا حقيقيًا لما حدث فى أحد الأيام.. فى ذلك الوقت.. كنت أسير بجوار النهر ببلدتى دسوق.. وهناك على بعد خطوات منى كان يقف رفعت مع مجموعة من الصبية.. وما أن رآنى أقترب منه رويدًا رويدًا وإذا به يقفز فى النهر، كنت أصبحت ملاصقًا لحافة النهر.. وأصبحت رؤيتى مباشرة له.. رأيته فى مشهد كأنه كابوس.. «رفعت» يغوص بالمياه ثم يظهر على سطحها.. ويغوص مرة اخرى والأمواج الشديدة تغطى جسده النحيل ويداه تضربان الماء فى حالة دفاع مستميت عن الحياة وعيناه الجاحظتان مازالتا متعلقتين بى.. ونظرة الفزع الرهيبة تطل منهما بوضوح ظاهر..

تسمرت قدماى بالأرض.. صرخ الناس غريق.. شلت المفاجأة أوصالى.. جف لسانى فى حلقى.. أطبقت شفتى على صمت عميق.. أصبحت الأشياء تتدافع أمامى فى صورة مهزوزة.. اختفى رفعت فى لمح البصر.. وابتلعته الأمواج العاتية.. تلاشى الجسد النحيل..

«بعد دقائق.. أو ربما ساعات لا أعلم.. عدت إلى منزلى والصمت المطبق يلفنى.. تسللت إلى حجرتى.. انزويت فى أحد أركانها أرتعد من الخوف.. وجاء الليل.. لم يغمض لى جفن.. صورة صديقى رفعت لا تفارق خيالى.. سمعت طرقات عنيفة على باب منزلى.. تناهى إلى سمعى صوت والد رفعت يسأل أسرتى عنه.. لم يحصل على إجابة فهم لا يعلمون ما حدث لابنه.. شعرت بذنب كبير مازلت أحسه حتى الآن.. مازلت أشعر بأننى مسئول عن موت صديقى»!

ويسقط من وعى الذاكرة بين صفحات الأيام كثير من الأحداث تتحول داخل الأعماق إلى أسرار.. وتتوالى أيام جديدة فى حياة عبد الوهاب مطاوع.. انتقل فيها إلى المرحلة الثانوية وبالتحديد فى سنة أولى ثانوى تلك المرحلة التى كان لها بعد الأثر فى حياته، حيث أصيب عبد الوهاب بحمى روماتيزمية وكان امتحان الدور الأول للسنة الدراسية على الأبواب؟؟ ظل عبد الوهاب حبيس الفراش شهرًا كاملًا.. لا يتحرك إلا بأمر الطبيب.. كان الكتاب صديقه الوحيد فى تلك الفترة.. وتعرف خلال تلك الفترة على أدب الكاتب نجيب محفوظ الذى لم يكن معروفاً فى ذلك الوقت إلا فى أوساط المثقفين.. قرأ روايته «فضيحة فى القاهرة» التى قدمتها السينما باسم «القاهرة ٣٠».. وبدأ تعلق عبد الوهاب مطاوع

بـــالأدب يزداد يومًا بعد يـــوم وارتباطه بالأديـــب نجيب محفوظ يظهر مـــن خلال قراءته لـــكل رواياته فى ذلك الحين «خان الخليلى».. «زقاق المدق».. «والثلاثية»..

ووقع عبد الوهاب مطاوع فى صراع عنيف بين الأدب والصحافة بعد أن حصل على التوجيهية.. والتحق بكلية الآداب قسم صحافة.. وككل الدارســين من طلاب الصحافة كان لابد من التدريب بإحدى المؤسسات الصحفية.. تقدم عبد الوهاب بخطاب توصية إلى الأديب الكبير إحسان عبــد القــدوس بمجلة روز اليوســف وبدأت خطواتــه الفعلية فى طريق صاحبة الجلالة من داخل هذه الدار.. وحدث له ما يمثل سببًا جوهريًا لتغيير مسار حياته العلمية بعد ذلك وبأسرها..

ماذا حدث؟.. فى اليوم الأول له بالمجلة.. تقدم إلى أحد نواب رئيس التحريــر وعرفه بنفســه.. وبدون مقدمات.. فوجئ بــه يطالبه بإحضار أخباره فورًا.. وقع عبد الوهاب فى حيرة شديدة.. كيف يستطيع القيام بذلــك وهو لا يعلم من أى جهة يبدأ بها.. وما نوعية الأخبار المطلوبة.. طرح هذه التســاؤلات على نائب رئيــس التحرير واصطدم بصمت مطبق من ذلك الرجل المتجهم ذى الوجه العابس.. انســحب عبد الوهاب من الحجرة دون أن يلتفت وراءه بإهمال كبير وتجاهل فظ له.. وبدأ بصعوبة يجمع الأخبار ويعود ومعه بعض منها وفى كل مرة كان يصطدم بتجاهل نائب رئيس التحرير.. ومرت شــهور.. وقرر بينه وبين نفسه أن يتجرأ ويسأله.. هل نجح فى الحصول على أخبار معقولة.. أم فشل؟

طرق باب أســتاذه واســتأذن فــى الدخول.. تقدم خطــوة إلى الأمام

محاولاً أن يستعيد رباطة جأشه وبصوت متزن حاول ألا يظهر ضعيفا سأل: إيه رأيك يا أستاذ.. فى الأخبار التى أقدمها لسيادتك.. وكانت الطامة الكبرى.. صرخ الأستاذ فى وجه التلميذ صرخة مدوية اهتزت لها الحجرة بما فيها.. كان صوته كزئير الأسد الذى هم بالتهام فريسته مشهرا أنيابه فى الهواء فى لحظة قنص فريدة..

قال له «إنت فاكر نفسك شخصية مهمة.. إنت فاكر إن مفيش غيرك فى المجلة»!!.

وقع تصرف وسلوك الأستاذ على التلميذ كوقع الصاعقة.. اختفت الدماء من وجهه.. تدلى رأسه على كتفيه فى خزى ومهانة.. تراجع إلى الخلف.. لم يدر كيف تمكن من الفرار من داخل قفص الأسد؟!!.. لم يرحم نائب رئيس التحرير ذلك الكيان الهش.. لم يمد له يدًا حنونًا تحتضن بدايته..

أعلن عبد الوهاب العصيان.. قرر التوقف عن التدريب داخل هذه المجلة ومع الأستاذ الفظ..

هل انتهى الأمر عند هذا الحد.. أم أنه اتخذ شكلًا مختلفًا؟

أثناء جلوس عبد الوهاب مطاوع داخل كافيتيريا كلية الآداب يتسامر مع بعض زملائه وكان بينهم مصطفى شردى.. وكان فى ذلك الوقت طالبا فى نفس دفعة عبد الوهاب مطاوع لكنه كان يمارس الصحافة كمحترف فكان يعمل مدير مكتب بورسعيد لجريدة أخبار اليوم.. اقترب منه وسأله.. أين تتدرب الآن يا عبد الوهاب؟

أخبره بما حدث له من نائب رئيس تحرير مجلة روز اليوسف

وبقراره بالتوقف عن الاستمرار فى التدريب بها.. وصدمته الكبرى بتلك المشاعر التجمدة من أستاذه الأول فى بلاط صاحبة الجلالة..

قام مصطفى شردى بتهدئة زميله.. وأخذ من يده بعد أن أخبره أنهما سيقابلان شخصًا عزيزًا عليه ويريد أن يعرفه به.. وذهبا معا.. أين؟ إلى مجلة روز اليوسف.. وإلى نفس الحجرة التى هرب منها.. دخل مع زميله مصطفى.. ولكن كان هناك شخص آخر.. بمجرد أن رأى مصطفى شردى اندفع إليه بقوة فاتحا ذراعيه يحتضنه فى حنان أخوى أو أبوى على الرغم من صغر سنه.. كان هذا الشخص هو أحمد بهجت «الكاتب الكبير».

وانطلق فى كلمات سريعة مرحبًا بالضيفين.. شعر عبد الوهاب بسرعة الدفء الإنسانى العميق يشع من سلوكه وبروح الفنان الحساسة وبرقة الإنسان تنشر رحيقها وعبقها بالمكان البغيض الذى افتقد فيه الأمان تحول بوجود أحمد بهجت إلى بستان من الجمال والتواضع.

وتبناه أحمد بهجت وتولاه برعايته.. أصبحا كظلين لا يفترقان.. وبعد أداء امتحان الليسانس سافر عبد الوهاب إلى بلدته دسوق لرؤية أسرته ثم عاد من جديد إلى مجلة روز اليوسف.. دخل إلى مكتب أحمد بهجت.. لم يجده. انتقل للعمل بجريدة الأهرام..

ويقول الكاتب الكبير عبد الوهاب مطاوع عن مشاعره فى ذلك الحين. لم أتردد لحظة فى الإسراع خلفه وبمكتبه الأهرام.. وقف عبد الوهاب أمامه موجهًا إليه لوم وعتاب الابن إلى أبيه والصديق إلى صديقه.. قائلا.. لماذا تركتنى؟ ماذا أفعل بدونك؟

انطلقـت ضحكة مجلجلة مــن أحمد بهجت أشــاعت روح المرح.. فتحول العبوس على وجه عبد الوهاب إلى ابتســامة مشرقة.. قال أحمد بهجــت له.. لقد قررت أن تعمل بالأهرام.. وأخبره أن الصحفى الكبير صلاح منتصر ســوف ينشئ قسمًا جديدًا «التحقيقات» وأنه سوف يلحق به.

وقد كان.. عمل عبد الوهاب بالأهرام بقسم التحقيقات أسبوعًا واحدًا ونشر له أول تحقيق فى صفحة كاملة.

وبدأت المســيرة وثبتت الخطــوة وأصبحت أكثر رســوخًا وأكثر ثقةً وأكثــر إيمانًا.. ولم ينس الكاتب الصحفى الكبير أن يمد يده دائما وبها الكثير من العطاء والدفء والفهم للبراعم الشابة..

❑❑❑

obeikan.com